

الفصل الخامس

السياق النسقي في علم البيان

المبحث الأول

سياق التشبيه

التشبيه أول طريقة تدل عليه الطبيعة لبيان المعنى، ونعني به لغة التمثيل، والتشبيه: «عقد مماثلة بين أمرين أو أكثر، قصد اشتراكهما في صفة أو أكثر، بأداة، لغرض يقصد المتكلم للعلم»^(١).

أو هُوَ «إلحاق أمر بأمر في وصف بأداة لغرض، أو هُوَ مشاركة أمر لأمر في معنى بأدوات معلومة»^(٢).

أو هُوَ «الدلالة على مشاركة شيءٍ لشيءٍ في معنى من المعاني أو أكثر على سبيل التطابق أو التقارب لغرض ما ولا يكون وجه الشبه فيه منتزعا من متعدد»^(٣).

وَقَدْ أُطْلِقَ فِي التعريفات لفظ (أمر) أو (شيء) ليشمل ذَلِكَ الحسيات والمعنويات، فيمكن أن يكون المشبه والمشبه به حسيين، ويمكن أن يكونا معنويين، ويمكن أن يكونا مختلفين، فيكون أحدهما حسياً والآخر معنوياً، وهذه تسمى صور التشبيه، أو طرفا التشبيه^(٤).

(١) جواهر البلاغة: ٢١٩.

(٢) البلاغة الميسرة: ١٢٧؛ وينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: ٣/٣٨٤.

(٣) البلاغة العربية: ٢/١٦٢.

(٤) ينظر: جواهر البلاغة: ٢٢١، ٢٢٢؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ١٢٧، ١٢٨.

□ أركان التشبيه أربعة^(١):

- ١- المشبه: هو الأمر الذي يُراد إلحاقه بغيره.
- ٢- المشبه به: هو الأمر الذي يُلحق به غيره.
- ٣- وجه الشبه: هو الوصف المشترك بين الطرفين، ويكون في المشبه به أقوى منه في المشبه، وقد يذكر وجه الشبه في الكلام، وقد يحذف.
- ٤- أداة التشبيه: هي اللفظ الذي يدل على التشبيه، ويربط المشبه بالمشبه به، وقد تذكر الأداة في التشبيه وقد تحذف.

□ وأدوات التشبيه هي كل لفظ يدل على المشابهة هي^(٢):

- (الكاف): قَالَ تَعَالَى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ مَّا كُولٍ﴾^(٣).
- (كأن): قَالَ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾^(٤).
- (مثل): ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾^(٥).
- وما في معنى (مثل) كلفظة (نحو)، وما يشتق من لفظة (مثل) و(شبه) ونحوهما. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا﴾^(٦)، أي مثل اللؤلؤ المنثور.

(١) ينظر: جواهر البلاغة: ٢١٩؛ وينظر: البلاغة العربية: ١٦٢/٢.

(٢) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: ٤١١/٣؛ وينظر: علوم البلاغة: ٢٣٢.

(٣) سورة الفيل: ٥.

(٤) سورة الرحمن: ٥٨.

(٥) سورة يونس: ٢٤.

(٦) سورة الإنسان: ١٩.

□ تقسيمات التشبيه:

يقسم التشبيه باعتبار طرفيه إلى حسي وعقلي^(١):

أ - طرفاه حسيان: أي مدركان بإحدى الحواس الخمس الظاهرة. نحو:
عطر هند كأريج المسك.

ب - طرفاه عقليان: قَالَ تَعَالَى: ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيْطَانِ﴾^(٢).

ج - طرفاه مختلفان، بأن يكون المشبه حسي، والمشبّه به عقلي، نحو
العطر كالخلق الكريم، أو أن يكون المشبه عقلي، والمشبّه به حسي، قَالَ
تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾^(٣)، ونحو: رأي كفلق الصبح.
ويقسم التشبيه باعتبار الأفراد والتركيب^(٤):

أ - طرفاه مفردان مطلقان: خدّه كالورد. أو مقيدان، نحو: الساعي بغير
طائل كالراقي على الماء. أو مختلفان، نحو: ثغره كاللؤلؤ المنظوم.

ب - طرفان مركبان تركيباً لم يُمكن أفراد أجزائهما، بحيث يكون
المركب هيئة حاصلة بين شيئين، واعتبرت شيئاً واحداً.
قَالَ الشاعر:

(١) ينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: ٣/٣٩٢؛ وينظر: المنهاج الواضح للبلاغة: ٤٧/١، ٤٨.

(٢) سورة الصافات: ٦٥.

(٣) سورة النحل: ٧٧.

(٤) ينظر: البلاغة العربية: ١٨٦/٢؛ وينظر: المنهاج الواضح للبلاغة: ٤٩/١، ٥١/٥؛

وينظر: البلاغة الميسرة: ١٣٣، ١٣٤؛ وينظر: الخلاصة في البلاغة: ٢٢.

كَأَن سُهَيْلاً وَالنَّجُومَ وَرَاءَهُ صفوف صلاةٍ قام فيها إمامها

ج- طرفاه مفرد بمركب، كقول الخنساء:

أَغْرُ أَبْلَج تَأْتُمُّ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

د- طرفاه مركب بمفرد، نحو الماء المالح كالسم.

ويقسم التشبيه باعتبار ذكر الأداة ووجه الشبه وعدم ذكرهما^(١):

أ - التشبيه المرسل، ما ذكرت فيه الأداة: كقول الشاعر:

إِثْمًا لِدُنْيَا كَبِيتَ نَسِجَهُ مِنْ عَنكِبُوتٍ

ب- التشبيه المؤكد، ما حذفته منه الأداة، كقول الشاعر:

أَنْتَ نَجْمٌ فِي رَفْعَةٍ وَضِيَاءُ تَحْتَلِكُ الْعَيُونَ شَرْقًا وَغَرْبًا

ج- التشبيه المجمل، ما لا يذكر فيه وجه الشبه، نحو: النحو في الكلام

كالملح في الطعام.

د- التشبيه المفصل، هو ما ذكر فيه وجه الشبه، قال الشاعر:

يَا شَبِيهَ الْبَدْرِ حُسْنًا وَضِيَاءُ وَمِنْـالًا

وَشَبِيهَ الْغَصَنِ لِينًا وَقَوَامًا وَاعْتِدَالًا

و- التشبيه البليغ، ما حذفته منه الأداة ووجه الشبه مثل قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۖ ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾^(٢) أي: كاللباس معناه جعلنا الليل

في ستره للأشياء كاللباس، فحذف وجه الشبه وهو الستر، وحذفت أداة

التشبيه وهي الكاف، فهذا يسمى بالتشبيه البليغ، وقال الشاعر:

(١) ينظر: البلاغة العربية: ١٧٢/٢؛ وينظر: البلاغة الواضحة: ٣٣؛ وينظر: البلاغة

الميسرة: ١٤٥، ١٥٠؛ وينظر: الخلاصة في علوم البلاغة: ٣٥، ٣٦.

(٢) سورة النبأ: ١٠-١١.

فاقضوا مآربكم عجالاً إنَّما أعماركم سفر من الأسفار

□ نماذج من صور سياق التشبيه النسقي:

قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ^(١)﴾. شبه القرآن الكريم الصدقات التي تنفق ابتغاء مرضات الله في كثرة ثوابها ومضاعفة أجرها بجنة فوق ربوة أصابها مطر غزير فأخصبت تربتها وتضاعف أكلها.

لو تأملنا هذا النظم العجيب للكلمات الإلهية لا يصلح في مكانها غيرها تعبر عن معانيها في دقة وإحكام، وتنبعث منها لطائف وأنوار، وينطوي تحتها الكثير من العجائب والأسرار، وهذه الجمل الربانية المتناسقة والمتلاحقة والمرتبة قد فصلت على معانيها بمقدار، وحروف ذات أصوات وأنغام تبعث في الصورة الحركة وتثبت فيها الحياة. وهذا من روائع النسق القرآني؛ إذ كان لاختيار المفردة المناسبة بدقة وتوظيفها بعناية جعلها متفردة متميزة لا يسد غيرها مسدها فاستعمال ﴿جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ﴾ وعلاقته (بالوابل) هذا النسق الجميل وهذا السياق العجيب أعطى للمفردة القرآنية صورة تشبيهية رائعة لا نجد لها في غيرها من الألفاظ، وهذا من جميل الصور التشبيهية النسقية.

ومثال آخر: قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾^(٢). وفي آية أخرى تأتي بلفظ (الجبال) في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي

(١) البقرة: ٢٦٥.

(٢) هود: ٤٢.

الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿١﴾.

فالملاحظ للآية في جمال التشبيه النسقي، إذ ذكر في سياق الموج ذكر الجبال لما توحى من فخامة وجلال، وعند ذكر سياق السفن أثر لفظ الأعلام لما فيها من جمالية؛ إذ إن لفظ الأعلام يجمع دلالة الجبال وأعلام الزينة. والموج هو: ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ و(موج كالظلل) ومناسبة هذا الاختيار ترجع إلى طبيعة الصورة، فالأولى إشارة إلى عظم الموج وارتفاعه، والثانية للإشارة إلى الخوف والرهبة فالموج صار مظلة لهم. وهذه العناية والدقة في اختيار وترتيب الألفاظ وجمال نسقها تكشف عن غنى الصورة التشبيهية وتنوع صيغها، وفقاً لمقتضى السياق الذي جاءت فيه والغرض الذي سيقى من أجله^(٢).

ومن أمثلة النسق القرآني للصورة التشبيهية، هي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

وفي تفسير مفردة (النور) آراء بلاغية مختلفة:

منها: أن المراد بالنور هنا هو الموجد وهو مجاز مرسل باعتبار لازم معنى النور، وهو الظهور في نفسه وإظهاره لغيره.

(١) الرحمن: ٢٤.

(٢) ينظر: من بلاغة القرآن: ١٣٦؛ والنسق القرآني دراسة أسلوبية: ٥٣٣.

(٣) سورة النور: ٣٥.

وجعله بعضهم منهم من التشبيه البليغ أو أن هناك استعارة تصريحية،
النور هو الحق؛ إذ جاء استعارة النور له كاستعارة الظلمة للباطل كما في
قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ووجه
الشبه الظهور^(١).

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ﴾: تشبيه بليغ والمراد به المضمّر الأداة وأحسن ما
يقال فيه أن التشبيه جار على التقريب للذهن أي به تعالى وبقدرته أنارت به
كما حصل بالضوء جميع المبصرات أو أنه جوازاً أي: منور السماء والأرض^(٢).
وفي لفظ النور وردت دلالات مختلفة في النسق القرآني وصوره التشبيهية
وهذا يكون وفقاً لمحيئها في سياقها كما ذكر ذلك القرطبي في تفسيره للآيات.
إذ تأتي بمعنى الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿لَنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى
النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١].

وتأتي بمعنى الرسول ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ
نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]. وتأتي بمعنى القرآن: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا
بِهِ وَعَزَّوْهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وتأتي بمعنى الهدى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾
[الزمر: ٢٢]. وتأتي بمعنى المثل المضروب في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ
اللَّهِ﴾ [الصف: ٨]. فمن أراد إطفاء نور الشمس بغيه يجده مستحيلًا فكذلك
من أراد إبطال الحق.

(١) ينظر: روح المعاني: ١٨/١٦٠-١٦٥.

(٢) ينظر: إعراب القرآن وبيانه: ٦/٦٠٩.

وتأتي بمعنى الضياء في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ
نُورًا﴾ [يونس: ٥]. وغيرها في كتاب الله كثير من دلالات ومعاني لمفردة
النور غير أن الغزالي من بين المفسرين والدارسين انفرد بقوله: «إن إطلاق
اسم النور على غير النور الأول مجاز محظ»^(١). والمعروف أن النور من أسماء
الله تعالى وعلى هذا الرأي فالنور هو الحقيقة، وكل ما عداها من النور فهو
صورة. وهكذا يبدو أن الصورة التشبيهية (للمشكاة والزجاجة والمصباح
والزيت) جاءت لتحقيق أكثر من هدف جمالي وديني في آن واحد، ولا يصلح
لتحقيق ذلك صورة أخرى، وهذا من روائع اختيارات وترتيب واتساق
جماليات القرآن المعجز، إذ لكل لفظة مدلولاتها التي بها نظام.

فالدلالة الموضوعية للصورة هي المعرفة المؤدية للإيمان، وهي مبثوثة في
ثنايا السماوات والأرض ومن فيها، لكن القلب البشري هو المقصود وهو
المطلوب أن يستوعبها.

فالتنقل في أبعاد الكون يقابله الانتقال من المشكاة إلى الزجاجة، ومن
الزجاجة إلى المصباح، ومن المصباح إلى الشجرة ثم إلى الزيت.

والزيت دلالة موضوعية على الإيمان، لأن نور المصباح ونور الزيت يقابلان
نور العلم ونور الإيمان اللذين أشير إليهما بقوله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾.

ويأتي الملمح النفسي في إظهار جمال الصورة النسقية للتشبيه في تعريفها
إلى صفات الخالق المبدع، والذي يتم من خلال شواهد الحياة للإنسان
والطبيعة ومن خلال إنتاج آلة الإبداع البشري.

(١) مشكاة الأنوار: ٢٥٨؛ وينظر: الآلوسي: ١٦٦/١٨؛ والنسق القرآني دراسة
أسلوبية: ٥٢٩.

وكمال المبدع وعظمته، فجاء تقريب وصفها بصورة المشكاة، ويمثل هذا النسق وتلك الصورة أنّ النور الخالق يبدع النور المخلوق ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾؛ لأنّ الكون كله من أصغر ذرة، فيه إشعاعات منطلقة لا قوام لها ولا مادة لها إلاّ النور^(١).

وقد شبه الله نوره الذي يُلقِيه في قلب المؤمن بالمصباح ووضع المصباح في مشكاة داخل زجاجة^(٢)؛ ولأنّ نور المعرفة له آلات يتوقف هو على اجتماعها: كالذهن والفهم والعقل واليقظة وغيرها. ولكثرة نفع الزيت وخلوصه عمّا يخالطه غالباً، وقع التشبيه في نور الشم مع أنّه أتم من نور المصباح^(٣). والإيحاء الذي تشير إليه كلمة (زيتونة مباركة) لا يحققه أن يكون وقود المصباح شمعاً.

وجاء نسق الصورة التشبيهية المتأنق في وصف المصباح. ألا ترى أنّ هذا المصباح جدير أن يبدد ظلمة الليل ومثله جدير أن يبدد ظلام الشك ويمزق دجى الكفر والنفاق^(٤).

ومن بلاغة الصورة التشبيهية لهذه الآية أنّ لفظة (المصباح والزجاجة) كررت، مرة نكرة وأخرى معرفة يترابط الذهن والخيال في إدراك الصورة ولا يتوهم ولا يذهب بعيداً في تفسيرها، فقد صار المصباح والزجاجة معروفين بعد التمهيد لهما بذكرهما نكرتين، ولأهمية أثرهما في الصورة تكرر ذكرهما.

(١) ينظر: الأساس في التفسير: ٣٧٧٢/٧؛ والنسق القرآني دراسة أسلوبية: ٥٣٠-٥٣١.

(٢) البرهان، للزركشي: ٤٨٠/٣.

(٣) إعراب القرآن وبيانه: ٦١٠/٦.

(٤) ينظر: من بلاغة القرآن: ١٩٥؛ وينظر: النسق القرآني دراسة أسلوبية: ٥٣١.

وفي الصورة ينابيع متعددة من النور، ومثل هذا سميت السورة كلها بسورة النور، ولأنَّ ما يستدعيه ذكر النور أن تذكر الظلمة والظلمات ورد في المقطع التالي: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾، وانتهت بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ وهذا مثالن للكافر^(١).

والمشكاة في الآية هي بيت النور، ويقابلها في أول الآية التالية قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ...﴾ فالمشاهد منسجمة والألفاظ متناسقة تكشف مدى التناسق الفني في الصورة التشبيهية القرآنية، وهذا من جمال وكمال إعجاز كتاب الله الترتيبي والنسقي.

هـ- التشبيه الضمني: ما حذف منه المشبه والمشبه به في صورة من صور التشبيه المعروفة، بل يلمحان في الترتيب، قال الشاعر:

لا تُنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حربٌ للمكان العالي



(١) البرهان، للزركشي: ٤٨٠/٣.